

على هانس « العجور »

راعى الغم فى باريس

للدكتور على شرف الدين

كانت بقايا الشمس الغاربة ترف فى جباه المهار القائمة فى ميدان سان جرمان ، فيجربى ذائب نصارها فى سواد عرائسها ، كما يجربى الحلم الشاحب الحزن فى لة طافت بها الذكريات . وكان الليل قد أخذ ينشر ذوائبه الضيف على جبين النهار ، وينزو بـكونه الرهيب ضجة الحضارة الصاخبة . بينما كان راعى الغم قد انتحى جانباً مستنداً إلى جذع شجرة هناك ، ومن حوله أسرته الخالدة يؤلفها عزاته الأربع ، وكلبه القروى : أسرة هى رمز الوفاء فى كتاب الأيام

كانت سفارته ترسل أنفاساً واهنة لا تكاد تصل إلى السمع إلا بشيء من عمل النفس ، ولكنها على هوائها كانت تصمد فى السماء رائحة لتستحيل إلى دعوات ضارعة فى عالم اللانهاية والخلود

كانت الحانة لا تحتاج إلى خيال شاعر ، ليردها إلى عالم آخر غير طائنا الذى نميش فيه ، ولقد ذكرت عندها قول أندريه جيد فى السيمفونى باستورال ، وهو يجربى آراءه فى الحياة والفن على لسان الباستير ، انه يرى « أن الموسيقى لا تصور العالم كما كان ، ولكنها تصوره كما يمكن أن يكون لو خلا من الشرور والخطايا » كان لألحان الراعى روعة فى النفس يزيد منها إقبال الليل فى سكونه ، حتى لكأنها دعوة السماء إلى القلب ، فامتطفت قبائمه وأحسست كأنها أنظر فى باريس إلى أثر مقدس ، يثنى من التقدم إليه جلال الزمن . وروعة الماضى . كان هو الراعى فى كل شيء غير سراويلات لم يشهدا الشرق فى زمانه ، وأوربي تنعمه الحضارة المادية ، وتأخذ حياته من أنظارها ولكنه كان منها بعيداً ، وفيها زاهداً لقد ورث من أبيه « الراعى الخالد » هذا الوجه الهادئ ، الذى لفته حرارة الصحراء ، فتركت فيه هذا

الرضا العميق ، يكشف عن نفس يعمرها اليقين والأمل . واقد كنت تقرا فى أسارير وجهه شيئاً آخر أقوى من اليقين والثقة ، كنت تقرا فيها فلسفة المزلة التى تظهر فيها النفس الإنسانية أقوى ما تكون فهماً وإشراقاً . فيلسوف لم يأخذ فلسفته عن منهج ديكارت ، ولكنه أخذها عن أستاذ لا يضل أبداً : عن الطبيعة التى لفت أجداده أبلغ الحكمة . لقد عرف الأمل فى الشروق ، وعرف المراك والألم والصبر فى راتمة النهار ، كما عرف الهدوء والرضا فى صفحة الغروب ، وسمع خطيب الليل الصامت يلق على الإنسانية فلسفة الجنوح والاستسلام إلى قوة غالبية . يجد فى جوارها السلم والمافية ، واستقام له من كل ما قرأ فى كتاب الوجود فلسفة راسخة قوية ، لا يفرها الأمل ، ولا يوهنها اليأس ، لأنها أقوى من إغراء الأمل ، وأسمى من تحاذل اليأس . إنها فلسفة الرضا القرون بإشراق الحقيقة ، يطل منها على هذه الحضارة الصاخبة المجنونة

لم تكن أنفاساً تتألف من مقاطع ، ولكنها صلوات القاب فى محراب الطبيعة ، تتألف من ضراعات الرهبان ، ونسك العابدين ، لست أدري أهى حفيف ذكريات الزمن البعيد ، أم أنها الترانيم الهامسة منذ الأزل فى قضاء الوجود . انها رسول السلام والأمن أقبل من السماء إلى الأرض ليذوق ما جرحت أبدى الحضارة وليبارك الضعاف الأقوياء الذين شرعوا أقوم المنزل فى الصبر والرضا ، حتى إذا أقبل الليل وجدوا فيه متنفساً لآلامهم ودموعهم ..

قال لى الراعى فى سفارته : « إن أمانيتنا ستظل رسول المذاب إلى قلوبنا ، وستظل سبب شقوتنا فى الحياة ، حتى تغير النظرة بأخرى ، وحتى نستبدل مقياس السعادة بآخر يمت إلى النفس بصلة ، وحتى ننصرف طوعاً وترفناً عن روعة لو اختبرناها لظاهر زيفها وباطلها ... »

« إن فلسفتى هى أقوم ما انتهت إليه الفلسفة التحفزة : حياة ساذجة لا صنعة فيها ، وعزوف عن الظاهر البراق لا زهداً ولا يأساً ، ولا حتى تدبناً ، ولكن إثارة للحقيقة ، وإدراكاً لجالها ، وتلبية لتداء النفس المطبوعة التى لا تحصى فى القاء ... » « إن فلسفتى ، لانتمى بغير نشيد الكون فى جلته ، وما بحثت

وأزها. قال : فسنمود إذاً إلى حديث الاختيار أو الجبر ، وما أعرف أن الفلسفة المربية قد قصرت في مناقشتها ، ففيم إذاً هذه الضجة ؟

لقد كتب ابن سينا عن الجوهر والوجود ، يمارنه في ذلك عقل الفيلسوف وخبرة الطبيب . كان فيلسوفاً وطبيباً يدرك النفس ، كما يدرك المنزل الذي تسكن فيه ، فأخى بين الروح والمادة ، وزواج بين الجهول والمروف ، واستقام له من ذلك منهج قويم . سكنت الراعي قليلاً ثم أقبل في الحديث وقد جرى شعاع من النور في أسارير وجهه : « إن للشرق طريقة حسنة في فهم الوجود . ولقد حل المشكلة هذا المندى المبارك ، وضرب ناغور على الحياة بسرادق من الخير والجمال ، وأنكر وجود الشر فيها ، وإذا كان له وجود فإنه عدم في عالم الحقيقة ، إنه كالحطأ في عملية حسابية له وجود على الأوراق ، ولا وجود له في الحقيقة . إنه كمن يحضر حفلاً خاصاً ، ولا يحمل معه بطاقة الدعوة ممن أقام الحفل . إنه موجود بين المدعوين ولكنه وجود لا تمتزجه الحقيقة . . ثم نظر إلى قائلاً : « آرى ما قال ناغور هو الشر ، وهبه شعراً ولكنه حسن جميل .. »

« لا يا سيدي إن لي زوجة جميلة تنتظرني ، وإنها من مباهج الحياة عندى ، فلم أنقب وأحصى ما لقيت من ألم في النهار ، وأنا أعرف أن سرورى بها يبدل أضعاف ما لقيت من ألم في النهار ، وإن لي أصدقاء من الرعاة نسمر معاً ، وتحدثت عن مملكتنا المسحورة ذات الروح والجداول والطير .. »

« إن الرومانس في أدبنا الفرنسى لم تطبع بهذا الطابع الشاحب ذى الزاج الحزين إلا بعد أن أطلق الشعراء تأملهم العميق في الوجود ، وغالوا في التحليق بنفوسهم وهم يتحدثون إلى الطبيعة ، حتى عبروا منطقاً الجمال إلى مجاهل الفلسفة ، وانتهوا في تأملهم إلى السؤال : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم ؟ فلما هجرت عقولهم طوى المجز قوسهم على ذرائعها ، فتألموا ، واختلطت أفانين الجمال في شعرم بنبرات من الحزن ، تكشف عن نفس مضطربة قبل أن تكشف عن نفس متأثرة حساسة

سكت قليلاً بينما كانت تخفق في جبينه طيوف من الحلم والذكرات ، ومسمته يردد في صوت خافت صهارة جهنم :

قطر عن مم يتألف الشديد ، ولا حاولت أن تعرف مقاطع نغمه ، وضروب إيقاعه . وإذا جهلت أنا شيئاً من هذا فإن ذلك لا يحرمنى السرور بجمال الإنشودة في جملتها ، وإن عناصر السكون الحافلة بالأمرار لتتجمع كلها في لحن واحد ، ما أيسر أن تحس النفس جماله ، وتتم بإدراكه ، فعلام إذاً أشق في تحليل المقاطع ، ومناقشة العناصر . . »

« إن الوجود في فلسفتنا مصدر الرعاة رزيمة تنفج بعبير السماء ، تذيبها الطبيعة في لحنها صباح مساء . إنه النهر الجارى تصفق في جوانبه الجداول ، وتنفج الطير على شاطئيه ، ما سألت قط عن منبعه ولا مصبه ، ولكنى أسير مع التيار شادياً مفرداً ، أصبح بهذا النغم ، وأشيد بجمال الحقيقة . . »

« وماذا يعنينى أن أبحث كما يبحث هذا الرجل المذنب (بالوجودية) ، انه يشق ويشق الناس معه ، ليثبت ان الوجود يسبق الجوهر ، ران الإنسانية لهذا محكوم عليها بالألم الشقاء . إنه لا يفهم الإنسانية إلا على هذا النحو الأسود القاتم ، ولا يراها غير فريسة للآلام ، فراح يلتمس لنا في فلسفته ، وقصصه ؛ ومسرحياته كل جرح دام من جراح الإنسانية المذبذبة ، وسارت باريس في ركابه تحمل المناظر السوداء ، لترى من خلالها هذا الوجود ، حتى فترت صبوات القلوب العامرة باليقين والأمل .. »

« وإذا كان « حميد الوجودية » قد زحم مؤلفاته بالمآسى الإنسانية التى يدعم بها مذهبه فإنه نسى الكثير من مسرات الإنسانية . وما الخير في فلسفة لا تقوم إلا على تذكر الشرور والآلام ، وتنفل عن مباهج الإنسانية الروحية ؛ فقطعت عليه لحنة : « أنتكر الألم في الوجود أيها الراعى ؟ »

قال : « أفنتكر أنت أن أكثر من النصف في الوجود خير وبركة وجمال ؟ روبدك فإن « الوجودية » تنكر المستقبل المسطور في السماء ، وتلق به بين يدي الإنسان ليصنعه بنفسه (١)

قلت : فإنه يسرف في التعبير ، ويستخدم من الألفاظ كفيلاسوف ما يؤيد به مذهبه ، وإنه يريد أن ينسب (الاختيار) إلى الإنسان ، وأن يقد أمه بالأعمال فإن لها عنده قيمتها